

الألوان



على حافة الجرف الصخري المحاذى للبحر، وقف المهندس الأربعيني سعيد وجسمه يميل نحو الهاوية. وحدها يده التي تمسكت بشجيرة بقيت تمنع عنه الموت. أصابعه المتمسكة بغصن الشجيرة تمازعه، وهو يحاول أن يغلبها حتى يهوي وتنتهي عذاباته. نظر إلى الماء والصخور تحته، وتصوّر لحظة الموت القاسية، ولكنه رغم ذلك لم يعد يريد أن يستمر في هذه الحياة... لقد خسر كلّ أمواله على طاولة القمار.

أغمض عينيه واعزم "سأدفع جسمي بقوّة الآن... لن تتمكن أصابعي من التمسك وسأرتاح... مهما يكن بعد ذلك لن يكون أسوأ مما أعيشه".

- "لا تقفر، على مهلك" فاجأه صوت من جانبها، من وراء شجيرة، تقدم رجل ستيني يلبس نظارات سوداء قاتمة وهو على قدر كبير من الأنفة وأردف قائلاً: "لا تقفر سأعطيك كلّ ما خسرته".

- ماذًا؟ يا عم أرجوك لا تصعّب الأمور عليّ، أنت لا تعرف كم خسرت، إنّه جنى عمري.

- "مهما كان الذي خسرته فسأرده إليك"، رد عليه الرجل ذو النظارات بثقة العارف.

- وسترده إلي مقابل ماذًا؟ لم يعد عندي شيء أبادلك به.

- بل لديك ما أريد، وهو معك الآن.

استعاد المهندس سعيد توازن جسده وتقىد نحو الرجل السني خطوة، وكأنّه بدأ يأخذ كلامه على محمل الجد:

- وما هو هذا الشيء يا عم؟

عيناك -

صُدم سعيد لطرح الرجل، لكنه لما التفت إلى العصا بيده أدرك أنّه على الأغلب أعمى، وأنّه بالفعل ربما يحتاج إلى عينين لكي يرى.

- "عيناي! تريد أن تأخذ عيناي؟" أي طرح هذا؟ أجاب سعيد بعمبية.

- وما المانع؟ لو لم أستوقفك لكان السمك يأكلهما الآن.. أنا أحق بهما.

- معك حقٌ في هذا، ولكن أي حياة سأعيشها من دون عينين؟

- ستكون مثل الحياة التي عشتها أنا طوال 63 عاماً، وهي حياة أفضل من حياتك، لأنني على الأقل لا أريد أن أنتحر.

ضحك سعيد ضحكة مَن يتلوي من آلام القدر، ولكن الرجل نجح في أن يقنعه بأنّ "هناك ثغرة ما في حسا باته، فدعاه للجلوس على مقعد قريب مواجه للبحر.

- حسناً ... إذا كنت أعمى بالفعل، فكيف وجدتني؟

- بسيطة، الكازينو وراءنا والهاوية أما مانا، وللقانط من رحمة الله لهاث استطيع تمييزه.

- حسناً، سأكمل معك، يبدو أنّك ت يريد عيناي لكي تستطيع أن ترى.

- بالضبط، ويجب أن تُنزع العينان من شخص على قيد الحياة وإنّا فلن تنفعنا.

- "ماذا لو ساءت حيا تي أكثر بعد أن تُقتل عيناي؟"، تسأله سعيد بجدية بالغة.

- لن تخسر شيئاً وسترجع إلى حيث أنت الآن، سأحضرك إلى هنا وأساعدك بمنفسي إن أردت المساعدة.

- ضحك سعيد قائلاً: حسأ بياً ما تقوله صحيح، فميّت بلا عينين يتساوى مع ميت بعينين، ولكن قبل أن أعطيك جوابي النهائي أريد أن أعرف أكثر عنك، هل ولدت أعمى يا عم؟

- نعم ولدت أعمى، ولعلمك يا بني، نحن نتصوّر الأشكال في أذهاننا بشكل مشابه لما هي بالحقيقة، مع أننا لم نرها أبداً، فهذا المقدّع مثلاً، له صورة دقيقة في ذهني بنيتها من التلمس، ولكن الشيء الوحيد الذي لا نعرفه هو الألوان.

- ولكنك يا عم تدبر حيانتك بشكل جيد وقد بلغت عتيماً، فلماذا تريد أن تخسر مالك؟

- "ربما لن يغير النظر الكثير في حيا تي، فأنا تعوّدت عليها ولكن... الألوان..." تنهد الرجل عميقاً، ثم تابع:

- قالوا لي إنّ السماء شاسعة ولو نهَا أزرق فيروزي جميل، وأرّزها على عظمتها واقفة بغیر عمد.

- مم، هي كذلك، إنّها بالفعل شاسعة بشكل كبير.

- وقالوا لي إنّ البحر واسع لا متناه، ذو لون لازوردي، وفوقه أمواج تترافق أبداً بلا تعب.

- الأمواج، نعم، ترى لماذا لا تهدأ؟

- وقالوا لي إنّ بين البحر والسماء هناك الطير صافات ويقبضن... وما يمسكهن إلا الرحمن.

- كم هو جميل انزلاق النورس في الهواء.

- وقالوا لي إنّ الشمس كوكب دري لا تقدر أن تنظر إليه لشدة سطوعه، وأنّها عند المغيب تحول إلى قرص أحمر كبير تلته به عيون الناظرين، وأنّها تسقط في البحر رويداً رويداً.

- إنّها تغيب الآن وقد ابتلع البحر أكثر من نصفها... لونها يأسر الألباب.

- وقالوا لي إنّه كلّ يوم عند المغيب ترتسم في الأفق لوحة جديدة في الغيوم، يتدرج فيها الضوء بالسطوع، وتتدخل فيها الألوان، فتتمارج في ألوان جديدة.

- يا إلهي وكأنك ترى! بل في الواقع كأنّك ترى أفضل مني، فأنا لم أكن أنتبه لكلّ ذلك، أو ربما أراه لكنني تعودت عليه. التفت الرجل الأعمى وكأنّه ينظر إلى سعيد وسألته بحماسة شديدة: "قل لي يا بني هل ما تراه جميل؟".

- جميل جداً يا عم.

- وهل يحرملك ما خسرته اليوم من رؤية هذا الجمال؟

- أبداً، لا أعرف ما جرى لي، عجيب، من بعض دقائق كنت كارهاً لكلّ هذه الدنيا، والآن اختلف الأمر.

- الأمر عادي... كنت مقتولاً وها قد رجعت أولى أنفاسك... ربما لأنّ خسارتك لمالك قد يكون أكبر نعمة حصلت عليها، الآن تستطيع أن تبدأ باستعادة حياتك. "من استكثر المال هو كالصبي الذي يأخذ الحية لي فهو بها فتقتلها، ولكن قتيل الحياة يعرف أنّه قتيل، وقتيل المال لا يدرى بحاله".

- قتيل! بالفعل، ولم يكن سقوطي إلى الهاوية ليغير الكثير، أنت موهوب يا عم، كلماتك كانت موفقة وأصا بتني في صميمي، ربما كنت أحتاج إليها وساعدك التوقيت.

ساد الصمت للحظات وسعيد مستغرق بأفكاره، محاولاً أن يفهم ماذا يجري، ثم أكمل:

- أنا آسف يا عم، لن استطيع أن أعطيك عيناي، ولكن بطريقة ما أطنك لم تُردهما منذ البداية، أطنك أردت شيئاً آخر.

- أتعلمبني، أنا أطن أنّ رؤية الألوان أمر جميل، ولكن هناك أمر أعظم وألذ.

- وما هو؟

- أن تحبّي إنساناً بعد موته، أن تكسر تلك القشرة المتراكمة التي تحجب النور فتصيء نفسها مظلمة.

- إنّ لهـذا الأمر لـذـة لا استطـيع وصفـها .

- أـتقـصد أنـ مـسـاعدـتك لـي تـبـهـج نـفـسـكـ؟

- الأـمـرـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ. عـنـدـمـاـ تـجـبـرـ قـلـبـاـ كـسـيرـاـ، هو قـلـبـكـ الـذـي يـحـيـاـ أوـ جـزـءـ مـنـهـ عـلـىـ الـأـقـلـ، لـيـسـ أـنـ مـاـ تـحـسـ بـهـ مـنـ حـبـورـ هـوـ نـتـيـجـةـ لـمـاـ فـعـلـتـهـ، لـاـ لـيـسـ كـذـلـكـ، بـلـ هـوـ شـيـءـ وـاحـدـ: مـاـ يـحـدـثـ لـكـ يـحـدـثـ أـيـضاـ لـيـ، نـحـنـ لـسـنـاـ مـنـفـصـلـينـ كـمـاـ نـظـنـ. وـعـنـدـمـاـ تـحـسـ بـذـلـكـ الـوـصـالـ فـسـيـنـتـاـ بـكـ شـعـورـ رـائـعـ لـنـ تـرـيـدـ بـعـدـهـ أـنـ تـرـجـعـ إـلـىـ نـفـسـكـ أـبـداـ.

- مـمـمـ.. أـطـنـهـاـ لـيـسـ كـلـمـاتـكـ قـطـ تـلـكـ الـتـيـ أـنـقـذـتـنـيـ... فـيـ الـأـمـرـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ.

- نـعـمـ فـيـ الـأـمـرـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ بـكـثـيرـ.

فيـ الـيـوـمـ التـالـيـ شـوـهـدـ سـعـيدـ مـعـ العـجـوزـ عـلـىـ المـقـعـدـ نـفـسـهـ، وـلـأـيـامـ طـوـيـلـةـ بـعـدـهـ طـلاـ يـظـهـرـانـ مـعاـ، ثـمـ شـوـهـدـ بـعـدـ ذـلـكـ رـجـالـ آخـرـونـ مـعـ العـجـوزـ عـلـىـ ذـلـكـ المـقـعـدـ وـحـولـهـ. وـلـسـنـينـ مـرـتـ، لـوـحـظـ أـنـ حـالـاتـ الـانـتـحـارـ مـنـ عـلـىـ ذـلـكـ الـحـرـفـ قـدـ خـفـتـ بـشـكـلـ كـبـيرـ، بـعـدـ أـنـ كـانـتـ شـبـهـ يـوـمـيـةـ. وـعـنـدـمـاـ تـوـفـيـ العـجـوزـ، تـسـاءـلـ أـفـرـادـ عـائـلـتـهـ عـنـ الـعـدـدـ الـكـبـيرـ مـنـ الـغـرـيـاءـ الـذـيـنـ حـضـرـواـ الـجـنـازـةـ، رـجـالـ لـاـ يـجـمـعـ بـيـنـهـمـ شـيـءـ إـلـاـ أـنـهـ كـانـ لـهـمـ مـاضـ مـضـطـرـبـ، وـبـعـدـ تـشـيـعـهـ، تـلـاقـيـ هـؤـلـاءـ الرـجـالـ وـتـعـاهـدـوـاـ عـلـىـ أـشـيـاءـ غـيـرـ مـعـرـوـفـةـ، وـلـكـ يـقـالـ إـنـهـمـ أـسـسـوـاـ جـمـعـيـةـ سـرـيـةـ. وـبـعـدـ ثـلـاثـ سـنـوـاتـ مـنـ وـفـاةـ الـعـجـوزـ أـفـلـسـ الـكـازـيـنـوـ وـتـرـدـدـتـ أـخـبـارـ غـيـرـ مـؤـكـدةـ عـنـ مـسـؤـلـيـةـ تـلـكـ الـجـمـعـيـةـ عـنـ حـرـمانـ الـكـازـيـنـوـ مـنـ روـادـهـ.

ولـكـ أـكـيـدـ أـنـ أـوـلـئـكـ الـأـغـرـابـ الـذـيـنـ حـضـرـواـ جـنـازـةـ الـعـجـوزـ عـاـشـوـاـ بـقـيـةـ حـيـاتـهـمـ مـعاـ، عـلـىـ مـاـذاـ اـجـتـمـعـوـاـ وـمـاـ الـذـيـ رـبـطـهـمـ؟ يـبـدوـ أـنـهـمـ قـصـةـ تـسـتـحـقـ أـنـ تـعـرـفـ.

المـصـدـرـ: مـجـلـةـ الـعـرـبـيـ/ الـعـدـدـ 683ـ لـعـامـ 2015ـ

الـقـاصـ منـ لـبـنـانـ